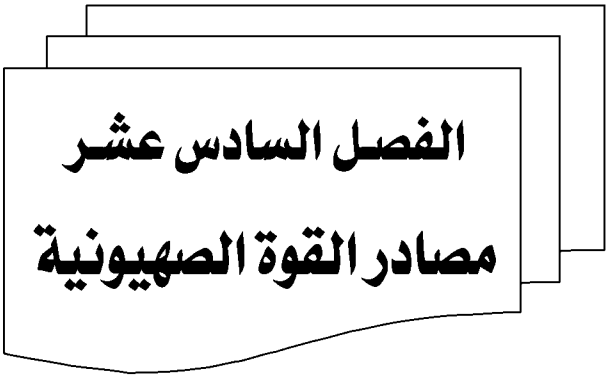
الفصل السادس عشر
مصادر القوة الصهيونية

لأن عملية جمع التبرعات للدولة الصهيونية ليست عملية محايدة أو بسيطة وتتسم بالتخجيل والترغيب تارة، وبالقسر والإكراه أحيانًا، وبالغش والخداع (فيما يتعلق بالأهداف) في معظم الأحيان، فإن لفظ "جباية" قد يكون أقرب للدقة وأكثر تفسيرية، لقد اعتمدت الحركة الصهيونية منذ نشأتها على التبرعات التي تجمعها من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وترى الأدبيات الصهيونية أن عمليات الجباية تقوِّي الروابط العاطفية بين إسرائيل واليهود الأمريكيين، ومن هنا فإن شعار النداء اليهودي الموحد الأكثر شهرة (نحن واحد) يحث اليهود على تأكيد تضامنهم بواسطة العطاء، والصهيونية تركز على تفسير الشعار بهذا المعنى، من هنا فالتبرعات لا يُنظر إليها باعتبارها مجرد إحسان بل بوصفها نوعًا من المشاركة في دولة إسرائيل، وخصوصًا من قِبَل اليهود العلمانيين والمندمجين (التوطينيين) التي تمثل حملة النداء اليهودي الصلة الوحيدة بينهم وبين روحانية إسرائيل ومركزيتها، على حد تعبير "إيرفينج بيرنشتاين" نائب الرئيس التنفيذي للنداء اليهودي الموحَّد.

لو تعمقنا في معنى شعار (نحن واحد) فسنجده فارغًا، لأن المقصود في جمع التبرعات هم اليهود الأمريكان، ومعظم هؤلاء علمانيين وهم سعداء في وطنهم أمريكا، ويتمتعون بحياة رغيدة في وطنهم، وليس في خلدهم أن يهاجروا إلى إسرائيل، لأنهم مندمجون ويحبون الحياة الأمريكية التي تختلف عن خصوصية المجتمع الإسرائيلي، إذن أين الرابط الروحي الذي تضعه الصهيونية وتربطه في معنى "نحن واحد"، إلا إذا كان هذا نوع من الخداع والتخجيل في آن واحد، فالصهيونية على الأقل كأنها تقول لليهودي في أمريكا، ماذا يمنع أن تتبرع وأنت تستطيع، وتحوز على الانتساب للصهيونية التي تشمل كل يهود العالم، ولن تكون أقل من المستوطن الصهيوني الذي يعيش في إسرائيل، وبهذا يمكن أن تجمع التبرعات، ذكر ريتشارد كروسمان (الزعيم العمالي البريطاني) أن الزعيم الصهيوني "حاييم وايزمان" الذي كان أول رئيس للوكالة اليهودية أنه قال، "لم يكن لليهود المندمجين في أوطانهم سوى الاحتقار، ولكن كان لديه استعداد دائم لجَمْع أموالهم من أجل مشروعه الصهيوني".

هذا، وإن الكثير ممن يُطلق عليهم صهاينة في أمريكا، يُقدمون التبرعات خشية التشهير بهم وفضح خصوصياتهم من الحركة الصهيونية أو بسبب الشعور بالذنب لأنهم لم يهاجروا لاستيطان فلسطين وتكون تبرعاتهم هي كل ما يربطهم بإسرائيل، وهؤلاء هم الذين يُطلق عليهم اصطلاح "يهود النفقة"، كما أن الموقف لا يختلف كثيرًا في بريطانيا وفرنسا وأمريكا اللاتينية، حيث أن التبرعات تقل مع مرور السنين، بسبب انخفاض نسبة التكاثر عند اليهود وتزايد معدلات الاندماج وهذا يعني تناقص عدد المتبرعين، كما أن السياسة الإسرائيلية وعدم جديتها في تحقيق السلام وإفراطها في استعمال القوة كما في حرب لبنان ٢٠٠٦م، وحرب غزة ٢٠٠٩م، وتورطها في عمليات تهريب السلاح لبعض الدول، وعمليات التجسس خصوصًا على الولايات المتحدة، أدى إلى شعور الصهاينة الاندماجيين في المجتمع الأمريكي بخيبة الأمل والشعور بالإحراج، وهو ما جعل الكثيرين يحجمون عن التبرع لإسرائيل.

يُعتبر الصندوق القومي اليهودي هو أقدم مؤسسات المنظمة الصهيونية العالمية وذراعها المالي لشراء الأراضي الفلسطينية، وتعود فكرة إنشائه إلى عالم رياضيات يهودي ليتواني عندما اقترح في عام ١٨٩٧م خلال المؤتمر الصهيوني الأول، إنشاء صندوق قومي يهودي للتبرع الطوعي بهدف شراء أراضي في فلسطين، ونُفِذَ الاقتراح في المؤتمر الصهيوني الخامس عام ١٩٠١م حينما أقر إنشاء الصندوق باقتراح من هرتزل ليكون الصندوق وديعة للشعب اليهودي لا يُستعمل إلا لشراء الأراضي في فلسطين ويكون مقر الصندوق في فيينا، ويكون عمل الصندوق هو شراء الأرض واستصلاحها وتأجيرها لمدة ٤٩ سنة قابلة للتجديد، ولا يجوز تأجيرها لغير اليهود أو استخدام عمالة غير يهودية لزراعة هذه الأراضي وصيانتها.

قام الصندوق بشراء أول مساحة من الأراضي له في فلسطين عام ١٩٠٥م، وبدأ أولى تجاربه في التشجير عام ١٩٠٨م بزراعة ما سُمِّي «غابة هرتزل»، ثم أقام الصندوق أول كيبوتس على أراضيه في داجانيا جنوبي طبرية، وقد استدعى هذا النشاط وضع الإطار القانوني المناسب للصندوق، ولذلك تم تسجيله عام ١٩٠٧م

كشركة بريطانية باسم "الصندوق القومي اليهودي المحدود"، وسرعان ما تحوَّل الصندوق إلى أن يُصبح الذراع الوحيدة لجباية الأموال من أجل شراء الأراضي في فلسطين، ومع صدور وعد بلفور ووقوع فلسطين تحت سلطة الانتداب البريطاني، اتسع نشاط الصندوق، وفي عام ١٩٢٠ تم تأسيس "الصندوق التأسيسي اليهودي" لتمويل عمليات الاستيطان.

ورغم الأحوال الاقتصادية السيئة لعرب فلسطين في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى وبعد الحرب أيام الانتداب، فقد بقي الفلسطينيون متمسكين بأراضيهم رغم الإغراءات في رفع أسعار الأراضي، ولم يبع الأرض لليهود إلا نفر قليل، وتم ذلك عبر العملاء الذين كانوا يشترون الأراضي بأسماء عربية ثم يُعيدون تسجيلها للصندوق اليهودي، هذا وقد اهتم الصندوق القومي اليهودي في البداية بشراء الأراضي لأغراض الاستيطان الزراعي، ثم أصبحت الاعتبارات الأمنية والسياسية أكثر أهمية مع تزايد الرفض العربي للاستيطان اليهودي ثم صدور تقرير لجنة بيل عام ١٩٣٧م التي أوصت بتقسيم فلسطين.

إذا كان الصندوق القومي اليهودي قد نجح في خَلْق حقائق جديدة على أرض فلسطين تُدعِّم المشروع الصهيوني، إلا أنه لم ينجح في النهاية إلا بامتلاك ٣,٥٥% من أراضي فلسطين، ولم يتم "تخليص" ما تبقَّى من الأراضي الفلسطينية إلا عن طريق القوة الجبرية والاحتلال العسكري، ونظرًا لتبعية الصندوق للمنظمة الصهيونية العالمية، فقد كان من الضروري تنظيم علاقته مع الحكومة الإسرائيلية، وقد تم هذا باتفاقية وُقِّعت عام ١٩٦١م، نصت على أن "الصندوق سوف يواصل أعماله بين اليهود في كلٍّ من إسرائيل وبلاد الشتات كوكالة مستقلة تابعة للمنظمة الصهيونية العالمية، وذلك بهدف جباية الأموال وتخليص الأرض والقيام بنشاطات إعلامية وتربوية صهيونية وإسرائيلية"، اعتمد الصندوق تاريخيًا على أساليب شتى لجباية الأموال، مثل بيع الأشجار في فلسطين والطوابع البريدية، وتسجيل أسماء كبار المتبرعين فيما كان يُعرَف باسم "الكتاب الذهبي"، وكذلك من خلال "الصندوق الأزرق" الذي كان يوضع في بيوت أعضاء الجماعات اليهودية ويُستعمل لجمع التبرعات، أما الآن، فإن المصادر الرئيسية لدخله هي

"مقابل إيجار عقارات يملكها وأشغال تعهدتها الوكالة اليهودية والحكومة الإسرائيلية"، ومن بين هذه المصادر، التبرعات والهبات العامة أو المُعطاة لأغراض محددة من قِبَل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، يُعَد الصندوق مؤسسة مالية ضخمة حيث قُدِّر مجموع موجوداته عام ١٩٨٠م بأكثر من ١٤٨ مليون دولار، وللصندوق فرع في الولايات المتحدة ومسجل كشركة مساهمة معفاة من الضرائب.

ومن أدوات الجباية الصهيونية لأجل دولة إسرائيل، "صندوق تأسيس فلسطين"، وهو الإدارة المالية الرئيسية للمنظمة الصهيونية العالمية، وقد أنشيء عام ١٩٢٠م عندما واجهت الحركة الصهيونية مشكلة تمويل مشروعها الاستيطاني في فلسطين بعد صدور وعد بلفور، وقد تضمَّن قرار إنشائه التزام كل يهودي أيًا كان موقفه من الصهيونية بدفع ضريبة سنوية بحد أدنى مُعين للمساهمة في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، على أن يقوم الصندوق بتوظيف التبرعات والمساهمات المالية المختلفة في استثمارها في مشروعات إنتاجية، لا تستهدف الربح في المقام الأول، ومن بين أهم مؤسسيه "حاييم وايزمان" و"فلاديمير جابوتنسكي" و"إسرائيل سيف"، وفي عام ١٩٢٥م، انضم الصندوق التأسيسي إلى الصندوق القومي، وكان قد سُجِّل الصندوق في عام ١٩٢١م كشركة بريطانية، وظل مقره في لندن حتى عام ١٩٢٦م حين انتقل إلى القدس.

من أدوات الجباية الصهيونية أيضًا "النداء الإسرائيلي الموحد"، وهو منظمة صهيونية لجمع التبرعات، تأسست عام ١٩٢٥م باسم "النداء الفلسطيني الموحَّد" فبينما أصبح الصندوق التأسيسي اليهودي المنظمة الرئيسية لجباية الأموال بين الجماعات اليهودية في العالم، أصبح النداء اليهودي الموحَّد يتولى ذلك الدور في الولايات المتحدة، والنداء الإسرائيلي الموحَّد مُسجَّل في الولايات المتحدة كمنظمة معفاة من الضرائب، أما "الشركة الاقتصادية الإسرائيلية" فقد تأسَّست عام ١٩٢٦م باسم الشركة الاقتصادية الفلسطينية على يد مجموعة من أثرياء اليهود الأمريكيين، كان على رأسهم لويس "براندیز" و"هربرت ليمان" و"لويس مارشال" و"فليكس واربورج"، بغرض تنمية البنية الاقتصادية للتجمع الاستيطاني الصهيوني

في فلسطين وتشجيع أثرياء اليهود الأمريكيين وغيرهم على استثمار أموالهم في مشاريع تجارية وصناعية وزراعية في فلسطين.

من وسائل الجباية الصهيونية "منظمة سندات دولة إسرائيل" وهي منظمة يهودية تهدف إلى "توفير الأموال على نطاق واسع من أجل تنمية دولة إسرائيل اقتصاديًا، وذلك ببيع سندات دولة إسرائيل في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا الغربية وغيرها من دول العالم"، وقد كان الغرض المباشر من تأسيسها عام ١٩٥١م توفير الأموال اللازمة لبناء المستوطنات الجديدة.

"الصندوق الإسرائيلي الجديد" هو أيضًا لجمع التبرعات، تم تأسيس هذا الصندوق عام ١٩٧٩م، وهو معفي من الضرائب، ويُشكّل هذا الصندوق محاولة من جانب العناصر الساخطة والمعتدلة داخل الحركة الصهيونية لإنشاء شبكة تبرعات خاصة بها، تقوم بتمويل الجماعات ذات الاتجاهات السياسية المماثلة داخل إسرائيل، ولا يموّل الصندوق أية نشاطات صهيونية خارج الخط الأخضر، ويُرسل اعتمادات إلى منظمات مثل هيئة الحقوق المدنية في إسرائيل، ويؤيد الصندوق جماعة السلام الآن، ويمكن النظر إليه على أنه الجباية اليهودية الموحَّدة الخاصة بالجمعيات التي تُحاول التملص من الصهيونية مثل الأجندة اليهودية الجديدة.

"يهودية دفتر الشيكات"، هو مصطلح شائع في الأوساط اليهودية الدينية وغير الدينية في الولايات المتحدة، وهو يُشير إلى أن كثيرًا من يهود الولايات المتحدة قد فقدوا انتماءهم الديني الحق، ولم يعودوا يؤمنون بالعقيدة الدينية وإنما يتمسكون ببعض الرموز الإثنية تعبيرًا عن هويتهم الدينية، ويتصورون أن إسرائيل هي كنيستهم وأن رئيس وزرائها هو حاخامهم الأكبر، وبالتالي يأخذ الإيمان بالنسبة لهم شكل الانتماء إلى المنظمات الصهيونية، ويُصبح الطقس الأكبر في هذه العبادة هو دفع المعونات والتبرعات للدولة الصهيونية، أي أن هذا النوع من الانتماء اليهودي يُعبِّر عن نفسه من خلال دفتر الشيكات، وهو أمر لا يختلف كثيرًا عن التحول عن عبادة الإله الواحد إلى عبادة العجل الذهبي، وهذا هو رأي كثير من الحاخامات الذين يرفضون هذا الاتجاه.

"يهود النفقة"، هو مصطلح وضعه أحد الحاخامات ليصف به يهود الولايات المتحدة الذين ابتعدوا عن يهوديتهم تمامًا واندمجوا في مجتمعهم، ولكنهم مع هذا يحاولون الإصرار على هويتهم اليهودية، أو على بقايا منها، ويخافون أن يُشهَّر بهم أو أن يُشار إليهم على أنهم مندمجون منعدموا الهوية، كما يرون أن الطريقة المُثلى العملية لتحقيق هذه الأهداف هي دَفْع تبرعات للدولة الصهيونية التي تطاردهم للحصول على أموالهم، ولكنهم في واقع الأمر، مضطرون إلى دفع التبرعات حتى لا يُشهَّر بهم، فالدافع إلى الدفع ليس الحب وإنما خشية الفضيحة، وبالتالي فإن يهود الولايات المتحدة مثلهم مثل من طلَّق زوجته أي يهوديته، ويود أن يكسب سكوتها بدفع النفقة المفروضة عليه حتى يمكنه أن يستمر في حياته الجديدة، أما "آرثر هرتزبرج" فقد استعمل صورة عكسية تمامًا، إذ قارن علاقة يهود الولايات المتحدة بإسرائيل بعلاقة الرجل بعشيقته، يغدق عليها الأموال ويشتري لها أحلى الثياب ويضاجعها، ولكنه لا يسكن معها ويعود إلى زوجته أم أولاده، أي الولايات المتحدة، وسواء أكان ما يدفعه اليهودي هو النفقة للزوجة المطلقة أو النقود للعشيقة فإن العلاقة ليست كاملة بأية حال ويدخل فيها عنصر نفعي، الأمر الذي يستبعد الولاء الكلي.

ما دام هذا الكتاب عن الصهيونية، فقد كان من الضروري أن نعرج على ذكر وسائل جمع التبرعات التي أشرنا إليها، تلك التي تقوم بها الحركة الصهيونية، وهو ما حدانا إلى السعي للبحث عن المصدر (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية للدكتور عبد الوهاب المسيري)، التي أمكننا أن نأتي منها بلمحة موجزة عن أدوات الجباية الصهيونية، فقد كان الغرض من الحديث عن الجباية الصهيونية إنما هو بهدف التذكير وأخذ العِبَر، فحتى وإن كانت التبرعات اليهودية لإسرائيل في تناقص لأسباب ذكرنا بعضها، إلا أن ما قامت به الصهيونية كان يُمثِل نجاحًا بكل المقاييس للمنظمة الصهيونية التي نجحت بتلك الأموال أن تُقيم دولة.